سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي التتار أو المغول:

جاءت نهاية الدولة العباسية في بغداد على أيدي التتار أو المغول الذين

توحدوا في ظل زعامة جنكيزخان. وبدأوا يتوسعون غرباً في اتجاه الدولة الإسلامية وغرب أوروبا. استطاع المغول في مدى سنتين (٦١٦ ـ ٦١٧ هـ / ١٢١٩ ـ ١٢٢٠ م من أن يحتلوا بخاري وسمرقند والري وتبريز وتفليس في بلاد الكرج، ثم استولوا على بلاد القفجاق والروس، ومدينة بلخ في خراسان. ولم يمت جنكيزخان (٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م) إلا بعد أن امتدت دولتهم من حدود الصين شرقاً إلى إيران وبلاد العراق وبلاد الروس غرباً، وإلى بلاد الهند جنوباً.

في ذلك الوقت، كانت الخلافة العباسية تنحدر في طريق الضعف. فما أن استكمل هولاكو شقيق منكوخان ـ خاقان المغول العظيم ـ إخضاعه للأمراء من بقايا الدولة الخوارزمية، واستسلام شيخ الجبل ركن الدين خوارزمشاه[٢] ـ خليفة حسن الصباح زعيم الباطنية الشهير ـ سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م، وكذلك جميع قلاع الباطنية (نحو ١٠٠ قلعة)، حتى زحفت جيوش المغول على العراق سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، قاصدين بغداد ومن عدة جهات إلى أن التقت كلها شرقها.

لم يستطع الجيش العباسي رد الهجوم المغولي أو الثبات، مما جعلهم يفرون في كل اتجاه، قبل أن تطال رقابهم سيوف المغول، فغرق بعضهم في الماء. وأيقن الخليفة نفسه أنه لا محالة هالك. فأسرع وأهل بغداد بالفرار عن المدينة يطلبون النجاة بأرواحهم. لكن المغول كانوا أسرع منهم، فاقتحموا المدينة وأعملوا سيوفهم في رقاب الناس مدة أربعين يوماً حتى بلغ عدد ضحاياها ثمانمائة ألف من السكان ثم نودي بالأمان. ولم يكتف المغول بهذا القدر بل عمدوا إلى نهب المدينة وأشعلوا النار فيها بعد ذلك، فأحرقوا جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين في كيفية مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله. وكيفما كان الأمر، غرقاً أو رفساً وضرباً حتى الموت، أو غير ذلك... الخ فالنهاية واحدة وهي مقتل الخليفة العباسي بعدما أخذوا منه كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه على مدى خمسة قرون. ولم يكتف المغول بقتل الخليفة بل

(٢) تاريخ الخلفاء ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

عمدوا إلى قتل ابنه الأكبر، ثم ألحقوا الإبن الثاني للخليفة بشقيقه وأبيه[٣].

إن الخلافة العباسية التي انتهت في العراق، قدر لها أن تظهر في القاهرة لتعيش نحواً من قرنين ونصف القرن في ظل سلطنة المماليك، حين رأى السلطان الظاهر بيبرس في أحياء الخلافة العباسية في مصر تدعيماً لسلطنة المماليك في نظر المسلمين، فاستحضر أحد أبناء البيت العباسي إلى القاهرة وبايعه بالخلافة سنة ٦٥٩ هـ /١٢٦١ م[٤]. لكن الخلافة العباسية التي تم إحياءها في القاهرة، كان الخليفة العباسي فيها تحت سيطرة سلاطين المماليك محروماً من كل نفوذ أو سلطان ليس له فيها أمر ولا نهي، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين.

ولم يقف المغول عند حدود العراق الغربية، بل تابعوا حركتهم التوسعية نحو بلاد الشام. فاستولوا على الجزيرة الفراتية، ثم اقتحموا حلب سنة ٦٥٨ هـ /١٢٦٠ م وبقي القتل والنهب فيها من نهار الأحد إلى نهار الجمعة، وبلغ عدد الأسرى زيادة على مائة ألف نسمة، ثم سقطت دمشق بالرغم من مقاومة قلعتها نحواً من أربعين يوماً، وهرب الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق. تابع المغول بعد ذلك طريقهم نحو فلسطين قاصدين مصر، لكن قطز سلطان المماليك أنزل بهم ضربة قاسية في موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ /١٢٦٠ م[٥]. فكانت أول معركة خسرها المغول منذ بداءة حركتهم التوسعية الأمر الذي جعلهم ينسحبون بعدها إلى العراق. وهذا ما شجع المماليك على إعادة مد سيطرتهم على بلاد الشام بالإضافة إلى مصر طوال عهد المماليك.

---

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٥٠ ـ ٥١. وتاريخ الخلفاء ٤٧٢.

(٤) النجوم الزاهرة ٧ / ١٠٩ ـ ١١١. وتاريخ الخلفاء ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٥) النجوم الزاهرة ٧ / ١١٠. تاريخ الخلفاء